

فكرة المجتمع المفتوح عند كارل بوير

لخضر مذبوح (*)

أولا : كارل بوير وخطاب الحدائة :

لما كانت فكره الحدائة وثيقة الصلة بالتاريخ، ويتاريخ الأفكار التي تحدده وتهيمن عليه، يجدر بنا أولا حتى نبرز بوضوح حدائبة أفكار بوير العلمية والسياسية أن نتعرض بشيء من الإيجاز المفيد لمكانة التاريخ في قلب المواجهة مابين نمطين من الفلسفات : فلسفة تهيمن خصوصا، على البلدان الأنجلوسكسونية، والأخرى تهيمن على القارة أو ما يصطلح على تسميتهما المدرسة الأنجلوسكسونية والمدرسة القارية.

فالفلسفة الانجلوسكسونية، فلسفة عقلانية، نجد فيها الفكر العلمي والتقني، هما في نفس الوقت الموضوع الرئيسي للدراسة، وأفضل الأمثلة تتبع، والتاريخ في هذه الفلسفة علم هامشي فهو في حدود الآداب. (١)

أما الفلسفة الثانية فهي على العكس وعلى الخصوص الفرنسية، فالتاريخ يمنح بديلا للفلاسفة الذين يريدون أن يبقوا مستقلين عن العمل الذي تنجزه العلوم الدقيقة.

ونحن نعلم أن الفلسفة على سبيل المثال في فرنسا هي في جزء منها تاريخ للفلسفة، الإبستمولوجيا تاريخ للعلوم، وأن نجوم الأنتلجنسيا الفرنسية اليوم هم غالبا، اختصاصيون في الوصف التاريخي أو الأنتروبولوجي وزيادة على هذا فإن عددا معتبرا من مقالات الفلسفة العامة التي تصدر اليوم، تهدف سواء إلى التنبؤ بمستقبل الإنسانية، مثلما حدث في الفترة التي ازدهرت فيها الماركسية، قصد استخلاص دلالة حدائتنا وأزمتها الحالية (٢).

(*) . قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة.

(1). voir : Michel Meyer : La philosophie Anglosaxone PUF , 1er edition , 1994

(2). voir : Karl Popper , Et la Science d'aujourd'hui , colloque de Cerisy , Aubier , 1989.

إن وجود هذا التعارض بين هذين النمطين من التفكير الفلسفي، يستطیع أن یبرر فحص انتقادات بوبر المفصلة - الذي یعتبر من أشد المدافعين عن النمط الأول - الموجهة لما یسمى بالتاریخانية historicisme ، التي تحتل مناقشتها ونقدھا جزءا هاما فی فلسفته كما سنرى.

یقول بوبر: " إنني آخر بقایا التنویر، أي أنني عقلاني أو من بالحقیقة، وأومن بالعقل البشري (...) وحين أقول إنني آخر بقایا التنویر أقصد أن رجل التنویر يتحدث بأبسط ما یستطیع من استخدام اللغة، حديثا یتسم بالوضوح والبساطة، والقوة مثل أستاذنا العظیم برتراند راسل، لأن الهدف من بساطة اللغة هو التنویر لا التسلط " (١).

بهذه العبارات یوجز بوبر خطابه الحدائی الذي طوره فی مسعى فلسفي سمّاه " العقلانية النقدية " التي رآها استكمالا وتطویرا لخطاب الأنوار، خاصة فی صیغته الإنسانیة المؤسسة على العقل والإیمان بالإنسان، وهي فلسفة تتسم بنظرة تفاؤلية مؤسسة على فكرة التقدم والتطور الخلاق، سعيا لتحقيق حرية الإنسان واعتناقه ورفاهيته وإعداده لتقبل مشاكل الحياة ومواجهتها مواجهة عقلانية واقعية (٢).

فبوبر یعتبر فیلسوفا ثوريا بتخمیناته العلمیة الجسورة التي ضمّنها كتابه " منطق الكشف العلمی "، وفیلسوفا إصلاحیا اجتماعیا حذرا، إن لم نقل محافظا فی مؤلفاته السیاسیة " عقم المذهب التاریخی " " المجتمع المفتوح وأعداؤه ". فكتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه یعتبر مفتاحا لمحاولته الجمع بین الديمقراطية والعلم، كمسعى لتأطیر حدثا عالمنا المعاصر، على أسس إنسانیة تتجاوز خطاب الأنوار، ومن المفید بصفة خاصة أن الدفاع اللیبرالی البوبری عن المجتمع الغربي وثیق الصلة بتصوراته الإبستمولوجیة (٣).

(1).Karl Popper,In Search of A Better World,Routledge, London and New York, 2000, pp. 206-207.

(2).Karl popper , La théorie de la connaissance et le problème de la paix , in : Toute vie est résolution de problèmes , Actes Sud , 1997 , P P 123-137

(3).Jacques.G. Ruelland : De l'épistémologie à la politique, Philosophie d'aujourd'hui, P U F , 1991.

وحدائية فكرة المجتمع المفتوح تنبثق من قيمة يشترك فيها مع الخطابات الحدائية الأخرى، وهي التخلي عن كل اليقينيّات، وتجاوز ما هو قائم، لكنه لا يقع في العدمية النيّتشوية والهيديغرية، ولا في التوتاليتارية الهيغلية الماركسية، فهي تقترب وتغرف من الروح الكانطية أكثر، فهو يدعو إلى إبستمولوجيا بدون ذات عارفة^(١).

إن الحد الفاصل بين قسمي فلسفة بوبر العلم والسياسة، يمكن الوقوف عليه، من خلال مقالته التي نشرها سنة ١٩٤٠ بعنوان: "ما هو الجدل؟" التي قدّم فيها ثلاثيته الجدلية التي سمّاها منهج المحاولة واستبعاد الخطأ، التي قدّم فيها جملة من الانتقادات على الجدل الهيغلي، مجردا من التغييرات التي أضافها ماركس إليه، انطلاقا من نقده للمنهج الماهوي essentialiste، الذي يعتمد هيجل بقوله: "كل معقول واقعي، وكل واقعي معقول" فمطابقة هيجل بين الفكرة والواقع، وتحطيمه لمبدأ عدم التناقض دفع بوبر إلى اعتبار جدله جدلا مغلقا، واقترح الاحتفاظ بفكرة الجدلية، مفتوحة على التحسين والتعديل والتفنيد والتكذيب بواسطة النقد والتجربة، عكس الحتمية الهيغلية الماركسية المغلقة، حسب المخطط التالي:

P1 → TT → EE → p2

حيث أن:

P1 : ظهور المشكلة ١.

TT : محاولة نظرية لحل المشكلة.

EE : محاولة استبعاد الخطأ من النظرية المحاولة.

P2 : مشكلة ٢ متولدة عن هذا الحل.

وهكذا سيرورة العلم، فالعلم يبدأ بمشكلات، وينتهي إلى مشكلات^(٢)، ولهذا اعتمد

فكرة محورية في فلسفته هي فكرة التفتح *l'idée d'ouverture*، بمعناها العلمي^(٣) الإبستمولوجي والسياسي، كقيمة علمية وأخلاقية تحكم مؤسسات المجتمع المفتوح

(١) Karl Popper, La connaissance objective, traduction Française édition Complexe, 3 eme édition, 1985, P P 119-165.

(2) Karl Popper, Conjectures and refutations, Harper tarch books. New York & London, 1965, P P 312-330.

وأفراده، وكمبدأ ينظم حياتهم ويوجه أعمالهم، يقول كارل بوبر: " إن المبدأ القائل بأن كل شيء متفتح على النقد. (الذي يكون بموجبه حتى هذا المبدأ في ذاته ليس مستثنى من التفتح على النقد) يقود إلى حل بسيط لمشكلة مصادر المعرفة كما أوضححتها في موضع آخر، هذه المصادر هي كل " المصادر " العقل، الخيال، الملاحظة، وكل ما يمكن ويسمح باستعماله، لكن ليس لواحد منها أي سلطة " (١).

ولهذا نجد في أعماله العلمية ينحوضنا نحوها تطويرا، ينقد الاتجاهات الوضعانية المعاصرة، ويتفتح على الميتافيزيقا، وفي السياسة يهاجم النزعات الكمالية والجمالية والطوباوية (٢). لأنها حسب رأيه نبوءات زائفة يقدمها أصحابها على أساس أنها علم، وخطأ أصحابها وتبعاته أعظم وأخطر من أخطاء العلماء الذين يتعاملون مع المادة، فإنهم بسعيهم إقامة الجنة على الأرض بنبوءاتهم سيحولون حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، وشواهد التاريخ على ذلك قائمة كالنازية والفاشية والشيوعية والستالينية. فالحداثة عند بوبر ليست خطابا مهولا ومهوسا يلعن الواقع والعالم أو مطالبة بتغييره كلية أو الفرار منه، إنها عملية تعهد للمعقولة في المسيرة العلمية والسياسية والاجتماعية، وهكذا نراه ينقد جنبا إلى جنب دعاة الأنساق الدوغماتية المغلقة في العلم كالتجريبيين المناطقة، أو المتعاملون المزيفون وأصحاب النبوءات التاريخية كأفلاطون وهيغل والرومنسيون كنيثشه وهيذرغر، يقول بوبر: " لأن قلت في هذا الكتاب كلمات قاسية حول بعض العظماء من قادة الفكر البشري، فدافعي إلى ذلك، كما أتمنى، ليس الحط من أقدارهم، إنه ينبعث من قناعتي أننا إذا أردنا لحضارتنا البقاء، يجب علينا أن نتخلى عن عادة الإذعان للرجال العظماء، لأن الرجال العظماء يمكن أن يرتكبوا أخطاء فادحة " (٣). ومن جملة هؤلاء العظماء أفلاطون وهيغل وماركس، الذين اعتبرهم أعداء الديمقراطية التي يعتبرها كثرشل النظام السياسي الأقل سوءا، لأنها تشكل في نسق تفكيره السياسي التطوري نظام المجتمع

(1).Ibid . P P 4-31

(2).Karl Popper. The open society and its enemies , Volume 1 . Routledge & Kegan , 1966 , P P 157-168.

(3).Ibid . P P 169-201

المفتوح، المنبثق عن النظام القبلي المؤسس على النظرية العضوية البيولوجية للدولة كما صاغها أفلاطون، أول منظر اجتماعي للفكر السياسي التوتاليتاري، الذي سار على نهجه هيغل وماركس، باعتبارهم التاريخ علما وحتميات صارمة، واعتقادا منهم أن بعقرياتهم ونبوءاتهم يمكنهم تأويله وتفسيره، سواء بالاستناد على مفهوم العناية الإلهية أو تحقيق المطلق في التاريخ كما هو الشأن عند هيغل، أو إحداث ثورة عمالية بالنسبة لماركس، وتأتي فلسفة كارل بوبر على نقض هذه الفلسفات، فلسفة واقعية حذرة، تحذر من التغيير الثوري العنيف.

لهذا ساهم في النقاش حول علمية *scientificité* العلوم الاجتماعية، وحذر من المزايم التي تدعي تماثلية بنيوية *similarité structurelle* ما بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية، وبالتالي فإن القيام بتعميمات وتنبؤات في العلوم الاجتماعية، كما هو الشأن في العلوم الطبيعية، مبني على فهم خاطئ للظاهرة الاجتماعية، وتفردتها وتميزها عن الظاهرة الطبيعية، يقول بوبر: " لقد أقنعتني دراسة حذرة لهذه المشكلة، أن تنبؤات من هذا النوع تتجاوز إمكانيات المنهج العلمي، المستقبل تابع لنا، ونحن من جهتنا لا نتبع أي ضرورة تاريخية، رغم التأكيدات المعاكسة لبعض المذاهب الاجتماعية المنتشرة الآن" (1).

إن أكبر خصم في العمق لبوبر هو القرن التاسع عشر في مجمله، القرن الرومنسي واللاعقلاني، الذي اتخذ عبادة الأمة شعارا له، القرن الذي يستمد أصلته الفكرية في زعمه اكتشاف التاريخ، أي زعمه أيضا أنه فهم أيضا، ليس فقط الحياة الاجتماعية، لكن النفسية والأخلاقية، إنها تتغير تاريخيا، وأن التاريخ قوة تتجه نحو هدف خاص به، يوظف فيه الأفراد كوسائل، وأن المستقبل الموعود للإنسانية هو مستقبل الانعتاق الكلي، الذي يفترض تجاوزا راديكاليا للقيم الخاصة بمجتمع ديمقراطي وعقلاني في حالة أزمة وتوتر طبعيا.

ولفهم الستالينية، يكفي قراءة كتاب "الصفرو واللانهاية" لكويستلر، لرؤية كيف أن الماركسيين آمنوا أن كل أخلاق ذاتية ستزول، مادام قد بين العلم أن التاريخ

(1).Ibid , P P 3-4.

سيذيب الأفراد داخل المجموع، ولفهم الفاشيات، يجب تذكر كم كانوا كثيرين المذهبيون في نهاية القرن التاسع عشر من نيتشه إلى شبنغلر الذين تنبؤوا بنهاية عالم منحن وظهور إنسان جديد، منبعت متخلص من أخلاق بائدة. و ضد أو هام القرن التاسع عشر، يقوم بوير بعودة واعية إلى فلسفة الأنوار، العقلانية، الأخلاقية، الكونية، مؤمنا بتقدم لا يستند على فكرة المصير *le destin* (التي تشكل محورا اهتمام هيغل، نتشه، هيدغر، ماركس) لكنه يستند على جهود البشر.

إن الاتجاهات الرومنسية، بحث عن أصلها بوير في ماضي الفلسفة. إنها مذاهب تاريخانية، تلك المذاهب التي تقول أن التغيير التاريخي يتم في اتجاه معين، وأنه يتعلق بعودة أبدية دورية، تتركب مع حركة انحطاط في داخل الدورة، كما يعتقد بذلك الهندوس والإغريق. أو على العكس، تعاقب نحو تعظيم وتقديس ديني، كما آمن بذلك المؤمنون بعودة المسيح، والتعظيم الأول من هذا النوع كان يهوديا، لكنهم الفلاسفة الإغريق الكبار حسب بوير هم الذين منحوا أول مثال منظر للتاريخانية. فمثل أفلاطون وأشباحها هي تبرير فلسفي استعمله لمعالجة التوتر الحضاري *tension civilisationnelle* والتوعك *malaise* الاجتماعي السياسي الذي عاصره بالاستناد على نظرية الثبات، ومحاربتة للتغير، باعتباره أن التغيير يتجه دوما نحو تدهور للمثال الأصلي الأول، وهكذا، فالمجتمع القبلي يقابل في عالم المثل، إن أي تغيير له يعتبر ابتعاد عن الأصل عن المثال أي تدهورا. وهكذا فتحليل هيغل وماركس وشبنغلر وتويني ليس تحليلا علميا: " دور العلوم هو دائما التنبؤ أو إعطاء تنبؤات يومية انطلاقا من أسس موثوقة، أما دور العلوم الاجتماعية، فهو إنتاج تنبؤات تاريخية مؤسسة على قوانين تتبجح أنها استخراجتها" (١).

وهكذا ينكر بوير إمكانية أن تكون هناك قوانين عندما يتعلق الأمر بمسار فريد مثلما هو الحال بالنسبة لتاريخ الإنسانية (٢) ويبقى مصرا على القول أن الكون مفتوح وأن المستقبل مفتوح أيضا (٣)، إن الأفكار الجديدة التي طورها بوير في سنوات

(1). Ibid . P P

(2). Ibid . introduction.

(3). Karl Popper , L'univers irrésolu , et l'avenirs est ouvert

١٩٦٠ - ١٩٧٠ تثبت أصالة الاستمولوجيا التطورية البويرية المتفتحة التي لم تكن ممكنة فقط مع القابلية للتكذيب، إن الجديد في أفكار بوير المتأخرة، هو الاهتمام الذي منحه للبيولوجيا وفروعها التابعة العلمية، ورفضه عزل نفسه مثل باحثين آخرين (التجريبيون المناطقة على سبيل المثال) في ميدان الفيزياء النظرية باعتبارها نموذجاً وحيداً للعلمية *scientificité*، وأهمية فكرة المجتمع المفتوح، كفكرة حداثية تؤيدها مجريات الأحداث المعاصرة التي واكبتها ورافقتها، فالكسوف السياسي للشيوعية قاد إلى انقلاب على المستوى الثقافي، الذي تأثر بالأفكار التي طورها بوير، في وقت لم يكن أحد بتصور وقتها النتيجة التي آلت إليها الشيوعية اليوم، ومهما كانت انتقادات بوير قاسية ضد التاريخية، فإنه لم يمنح شيئاً واحداً إذ يعترف أنه يلي حاجة لا يمكن حذفها، وهو صياغة تأويل عام للتاريخ، الذي يطبع المراحل الكبرى ويستخرج منها المعنى، ويحدد مرحلة في علاقتها بماضي الإنسانية، ويعطي بوير المثال بنفسه، ويقترح تأويله الخاص المعروف جيداً: انتقال الإنسانية من المجتمع القبلي المغلق الثباتي، الذي تهيمن عليه ذهنية سحرية إلى المجتمع المفتوح الفردي، التقدمي، المتميز بالروح النقدي. الذي يواجه فيه أفرادهم مصائرهم بأنفسهم، بمسؤولية وحرية^(١). وهذا الانتقال الذي بدأه اليونان في القرن الخامس الميلادي، الذي سببه تطور التجارة والذي سرّع وتيرته الغرب الحديث، هو انتقال ايجابي. فنحن هنا إزاء نظرية تفاعلية للتقدم، تتعارض بصراحة مع كل النظريات التي تنظر للانحطاط الكثيرة الانتشار هذه الأيام^(٢)، سواء كانت من إلهام نتشوي، أو هيدغري، أو مسيحي، أو ذات طبيعة إثنية أو إيكولوجية.

فكرة المجتمع المفتوح فكرة تعارض الذين يحنون للمجتمعات التقليدية (أفلاطون مجتمع القبيلة، هيغل سيطرة الجنس الآري، ماركس المشاعية البدائية)، ويعارض الأنبياء المزيفين لهذا القرن الذين يحملون بمجتمع متناعم وشفاف هم

(1) Karl Popper . The open society and its enemies , Op Cit , P P 173-182

(٢) كما يشهد على ذلك إغراق الناشرين العرب للسوق بالمؤلفات التي تتجه في هذا المعنى، كشينغلر وفوكوياما هذه الأيام، والكتب التي تنتبأ دينياً بانهباء العالم وانحطاطه.

مهندسوه. وبدفاعه عن المجتمع المفتوح، فإن بوير يقول على العكس، يجب علينا أن نتعلم العيش في اللااكتمال، وعدم الرضا، والأزمة، وما يعترف به بالفعل، هو أن المجتمع المفتوح يخلق في نفس الوقت، التقدم والتوعك، ويعزل الناس، ويحملهم ثقل مسؤوليات جديدة، وعند الأزمة والتوعك يحلم بعض أفراده بالعودة إلى البراءة المفقودة، في المجتمع المغلق، ويسعون لتخطيط مستقبل مجتمعات تجد فيه الطبيعة الإنسانية كمالها. لكن هذه الأحلام خطيرة جدا، ولن تؤدي في غالب الأحيان إلا إلى أشكال من البربرية. وهي معاكسة للتوجه الإنساني الذي هو بالنتيجة العقلانية والمعرفة، وضياح الوعي البري. فيجب القبول إذن أن نخوض بحثا ممتدا لا منتهيا بالنسبة للمعرفة أو بالنسبة للتقدم الاجتماعي أيضا، والاستحقاق الهام لفلسفة بوير في التاريخ هو أن نتخلى عن الحلم بالكمال. (١)

ثانياً: المجتمع المفتوح وقيمه :

مفهوم المجتمع المفتوح كمقابل للمجتمع المغلق، استعاره بوير من الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون واستعمله في كتابه " المجتمع المفتوح وأعداؤه " بمعنى آخر، وهو الكتاب الذي اتخذ قرار كتابته في اليوم الذي تلقى فيه خبر دخول جيوش " هتلر " إلى النمسا؛ بقول عنه بوير: " إنه دفاع عن الديمقراطية، في مرحلة لم يعد لها فيها أنصار كثيرون مقتنعون بها، كان كل الذين يكتبون تقريبا، أو الذين كنت على اتصال بهم، يتنبؤون بنهاية الديمقراطية، وانتصار فاشية اليمين أو انتصار فاشية اليسار، ولم يكن على شفاه الكب إلا نقاط ضعف الديمقراطية " (٢).

وليس مفهوم المجتمع المفتوح عند بوير شكلا لنظام سياسي أو لحكومة، بقدر ما هو شكل للتعايش الانساني، الذي تكون فيه حرية الأفراد والملاعنف وحماية الأقليات، وحماية الضعفاء، هي قيم أساسية (٣)، تلك القيم التي يعتبرها بوير أصبحت تحصيل حاصل في المجتمعات الغربية.

(1).Karl Popper . The open society and its enemies , Op Cit , P P 167-168

(2).- Karl Popper, La quête inachevée, traduction Française Calman- Levy , 1981 , P P 155-164.

Et surtout :

Karl Popper. l' avenir est ouvert , Symposium de Vienne , 1983 , P 165.

(٣).Karl Popper , La leçon de ce siècle , édition 10/18 , France , 1992 , P P 95-124

وعن فكرة المجتمع المفتوح، وقيمتها الأساسية الحرية، يعتبر بوبر أن مسارها طويل، إذ وجدت فكرة الحرية لأول مرة بأوريا لدى هوميروس، عندما يتحدث هكتور مع أندروماك عن اليوم الذي ستسقط فيه طروادة وعن اليوم الذي يفقد فيه الطرواديون حريتهم، يتحدث عن "يوم الحرية" وعن "يوم العبودية" (١).

كانت كتب هوميروس أول الكتب بأوريا، لقد كتبت لأول مرة سنة ٥٥٠ ق م بأثينا، ووزعت في نسخ، استجلب لها بيزيستراس عبيدا متعلمين، اشتراهم وكلفهم بنسخ ملحمتي هوميروس "الأوديسا والإلياذة" في لفائف من البردي، الذي اشتراه من مصر، مدخلا بذلك المادة الضرورية للكتابة، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها، يقول بوبر: "لا يجب أن ننسى أبدا أنه بدون سوق للكتاب لا يمكن أن يكون هناك نشر" (٢)، وهكذا تطورت الآداب في أثينا، وتبعها المدن الأخرى، وغدت أثينا ديمقراطية، بعدما أصبحت ملاحم هوميروس إنجيل وأبجدية الإغريق، تعلمت أثينا القراءة، ونقلت ونشرت كتبها، ومباشرة من بعد أخذت أثينا قيادة القبائل الإغريقية في حرب التحرير ضد الفرس، وهكذا باختصار كان ميلاد فكرة الحرية بأوريا والحضارة الأوربية حسب بوبر.

ويحس نقدي علمي ثاقب لبنية المجتمع الإغريقي القديم الذي تمثل صورته؛ المغلقة والمفتوحة، قبيلتين هما إسبرطة وأثينا، فالمعجزة اليونانية، بدأت في القرن السادس ق م، وتبلورت وتجسدت في نظام حكم أثينا الديمقراطي سياسيا وثقافيا وعلميا، على يد شلة يسميهم كارل بوبر "الجيل العظيم"، الذي قطع جيل الوصال بالمجتمع المغلق، وهو جيل رواده لا يجمعهم إطار مرجعي واحد، ولا مشرب ثقافي واحد، لكنهم يؤمنون جميعا بالعقل الانساني ومحدوديته وأهميته، ويحتكمون إليه في التقريب بين خلافاتهم، لأنهم يؤمنون أنهم نتائج المواجهات والمناقشات، حتى ولولم تكن ثمرة فيما بينهم، يقول كارل بوبر: "ما أريد قوله، يمكن تلخيصه في الأطروحة

(١).Karl Popper , l' avenir est ouvert , O p cit , P P 166-167.

(٢).Ibid , P P 167-168.

التي تقول أن حضارتنا الغربية هي نتيجة الصراع أو المواجهة بين الثقافات المختلفة، وبالنتيجة، نتيجة للمواجهة بين الأطر المرجعية" (١).

وبويريذهب أبعد من التحليل الغربي - مركزي occidntocentrisme، وإن قال بالمعزة اليونانية وشروط انبثاقها الداخلية، ويضيف إليها عوامل خارجية، ثقافية حضارية، كانت عاملا أساسيا فيها : "هناك تسليم واسع بأن حضارتنا التي تحت أحسن مظاهرها التي يمكن أن توصف (...) أنها اكتسبت كثيرا من السمات، مثل الأبجدية والمسيحية، ليس فقط من خلال الصراعات ما بين الرومان والإغريق، لكن أيضا من خلال المواجهات مع اليهود والفينيقيين وحضارات أخرى في الشرق الأوسط، وأيضا من خلال الصراعات الناجمة عن الغزوات الجرمانية والإسلامية" (٢).

وبويريؤكد أن المعزة الإغريقية مهما استطعنا تفسيرها قد كانت ناجمة عن صراع الثقافات، فالفلاسفة الأوائل في المستعمرات الأيونية بآسيا الصغرى وجنوب إيطاليا، كانت في مواجهة مع الحضارات الكبرى الشرقية، ودخلت معها في صراعات، سواء في الغرب، أين كانوا يلتقون بالصقليين وبالقرطاجيين والإيطاليين، مثل توسكان، يقول بوير: "إن أثر الصراع الثقافي على الفلسفة ينبع من الشهادات المتوفرة لدينا عن طاليس، وهو واضح في حالة هيرقليطس، لكن الطريقة التي قاد بها الناس إلى التفكير بطريقة نقدية ظهرت بقوة في زينوفان" (٣).

وهكذا فالدور الذي لعبه صراع الثقافات في ميلاد العلم الإغريقي، الرياضيات والفلك، معروف جيدا ويمكن حتى تخصيص الطريقة التي بموجبها كانت الصراعات المختلفة خصبة. يعتبر بوير أن أفكار الغربيين عن الحرية والديمقراطية والتسامح، وأيضا أفكار المعرفة والعلم والعقلانية، تعود جميعا إلى هذه البدايات. ويرى أن فكرة العقلانية هي أهم فكرة من ضمن هذه الأفكار جميعا. وعملية الصراع الثقافي، تساعد عند تطبيقها على مشكلة فهم عالمنا، وهكذا ميلاد العلم، والعقلانية ذات الدعامتين المتساويتين تقريبا، الأولى هي: الإبداع الشعري، وهي واقع سرد قصص أو صنع

(1)Karl Popper in :Karl Popper , et la science d'aujourd'hui , Op Cit,P 18

(2)Ibid , P P 18-19

(3).Ibid , P P 20-21

أساطير: اختراع حكايات تفسر العالم، هذه من أجل البداية، التي تبقى دائما ربما مشتركة وثنية، يحس الناس أنهم في قبضة قوى مجهولة، ويحاولون فهم وتفسير العالم، والحياة الإنسانية، والموت، باختلافهم حكايات أو أساطير حول هذه القوى (١).

إن هذه الدعامة الأولى التي يمكن أن توجد ربما كذلك أقدم من اللغة الإنسانية ذاتها، هي مهمة، وتبدو كونية: كل القبائل، كل الشعوب، لها حكايات تفسيرية هي في غالب الأحيان في صورة حكايات خيالية، ويبدو حسب بوير أن اختلاف الحكايات التفسيرية هي واحدة من الوظائف الأساسية للغة الإنسانية.

الدعامة الثانية ذات تاريخ حديث نسبيا، ويبدو أنها إغريقية على وجه مخصوص، وأنها ظهرت مع تأسيس الكتابة باليونان، لقد وبدت مع أنكسيمندريس، ثاني فيلسوف أيوني، إنها اختراع النقد، النقاش النقدي للأساطير المختلفة التفسيرية، بغية تحسينها عن وعي. وأول أسطورة مؤسسة، كانت أسطورة هوزيود " ميلاد الآلهة"، التي يعتبرها بوير قصة متوحشة للأصل البشري، وأعمال وشورر الآلهة، وماء طاليس وقوله: "إن الأرض فوق الماء، تسبح فوقه مثل السفينة"، فنقده تلميذه وصديقه أنكسيمندريس "لا يوجد شيء يحمل الأرض في الهواء وعوض هذا فالأرض تبقى ساكنة" إن نقد أنكسيمندريس لطاليس، وبناءه لأسطورة جديدة، لم يكن ليقود لشيء، لولم يستمر في هذا التقليد، فقد كان لكل جيل أسطوره، وهكذا يعتبر طاليس وأنكسيمندريس أول مؤسسين لتقليد مدرسي جديد: التقليد النقدي la tradition critique.

وهكذا فالمجتمع المفتوح مشروع تطوري، الثابت فيه قيمة الحرية والإيمان بالعقل الإنساني، مجتمع تغذيه وتنميه عقول واعية في المجتمع المتعدد المتنوع المختلف المشارب والآراء، الذي يسعى أفراد متميزون فيه في كل جيل وأمة، يسميهم بوير الجيل العظيم، لازدهاره كما هو الشأن بجيل طاليس، أنكسيمندريس وزينوفان وسقراط وديمقريطس وبروتاغوراس وثيوسيديس وبركليس وهيرودوتس وهوزيود، أي التقاء العلم والفلسفة والفن والسياسة في بؤرة متوترة دائمة من الصراع الثقافي العلمي،

(1).Ibid , P P 21-22

والاجتماعي السياسي، ومحاولة تسيير هذا الصراع وإدارته على قاعدة العقلية، التي تعتمد مدرسة النقاش النقدي البناء، من أمثال ديمقريطس الذي يقول: "لأن أجد تفسيراً سببياً واحداً، أفضل عندي من أن أكون ملكاً على فارس"^(١)، فنحن مدينون له بملاحظة العالم الحقيقي، والإنسان المتفتح، إذ يقول: "كل واحد من الناس عالم صغير في نفسه، يجب علينا مساعدة المظلومين، لنكون أختياراً علينا ألا نظلّم وألا نريد أن نظلّم، الأعمال الجميلة لا الأقوال الجميلة هي التي تؤخذ بعين الاعتبار، فقر الديمقراطية أفضل من رفاهية الأرستقراطية أو الملكية، مثلما أن الحرية أفضل من العبودية، الرجل الحكيم ينتمي إلى كل البلدان، العالم كله سكن لنفسه العظيمة"^(٢).

وسقراط الفيلسوف المتواضع، مؤسس الأخلاق والعقلانية، لقله: "أعرف نفسك بنفسك" وأنه لا يعرف شيئاً، قد حارب الرضا الذاتي والغرور العلمي، والتهور الأخلاقي، وألح أن الإنسان ليس مجرد جسد من لحم، فالإنسان توجد فيه شرارة إلهية هي عقله.

وبركليس، السياسي المتفتح، يقول: "نظامنا السياسي لا ينافس الدساتير الموجودة بالقوة في أي مكان آخر، نحن لا نحتذي بجيراننا، لكن نحاول أن نكون مثلاً يحتذى، إدارتنا ترعى الأقلية، ولهذا سميت ديمقراطية، القوانين تساوي بين الجميع في النزاعات الخاصة، لكننا لا نتجاهل المطالبة بالامتياز، عندما يميز المواطن بنفسه في خدمة الدولة، أفضل من غيره، ليس كموضوع حظوة، لكن كمكافأة للاستحقاق. الفقر ليس عائقاً (...) الحرية التي ننعّم بها تمتد إلى حياتنا العادية، نحن لا نرتاب في بعضنا البعض، ولا تتضايق من جارنا إن هو اختار طريقاً خاصاً به، لكن هذه الحرية لا تجعلنا خارجين عن سيطرة القانون"^(٣).

إذن شروط انبثاق المجتمع المفتوح وازدهاره، تتمثل في إقامة مؤسسات علمية وثقافية واجتماعية وسياسية، تعتمد على قاعدة النقاش النقدي، التي يعمل بها علماء وفلاسفة وفنانون وساسة مجتمعيين، وهذا التقليد روعي بإحكام في مسارات تطور

(1).Karl Popper , The open society and its enemies , Op Cit , P P 185-186

(2).Ibid , P P 186-187

(3).Ibid , P 186

الحضارة الغربية (ماعدا فترة العصور الوسطى الأوربية)، فالديمقراطيات الغربية الحديثة عرفت أمثال هؤلاء العظماء، وكان لها جيلها العظيم أيضا، كغاليليو وكبلر ونيوتن وأينشتاين وديكارت ولايبنيتز ولوك ولوثر وكانط وجونستبوارت ميل وموليير وشكسبير، وقادة سياسيون ديمقراطيون، كجورج واشنطن وتشرشل وديغول.

ولطالما عانى بوبر من تهمة الليبرالية والوضعية، خاصة من لدن جماعة فرانكفورت، الذين تعاملوا مع فكره كما لو كان امتدادا لفكر أعضاء " حلقة فيينا"، نموذجاً للفكر الليبرالي، ونقاشاته الحادة مع أورنو، التي قسمت الحاضرين في "توينجن" إلى قسمين، إذ هاجم بوبر أدورنو باعتباره حاول استغلال هيغل وإعادة بعث أفكاره، التي يعتبرها بوبر أفكارا عنصرية، معادية للحرية وللإنسانية، وأدورنو يتهم بوبر أنه يحاول بفلسفته الليبرالية المحافظة، الدفاع عن النظام الرأسمالي القائم، وأن منهجه الإصلاحى التدريجى، يخدم هذا الهدف، ورد عليه بوبر أن المجتمع المفتوح ليس فكرة ليبرالية، فهو مفتوح على التطور، وعلى الإصلاح التدريجى، والشىء الوحيد الذى يتمسك به بوبر كقيمة ثابتة لا تتغير في أسس هذا المجتمع هما فكرتان، فكرة الحرية وفكرة الديمقراطية، اللتين رأى أن بقاءهما وازدهارهما لا يكون ممكنا إلا في مجتمع مفتوح ديمقراطى

وفي مؤتمر توينجن (١٩٦١) اتهم Hans Albert هابرماس وزملاءه من أعضاء مدرسة فرانكفورت، بجهله أن قانون حكم القيمة لا يمكن اشتقاقه من أحكام الواقع. وحسب تيديسكو، فإن التصادم بين بوبر ومدرسة فرانكفورت، ناجم عن الاختلاف في تصور الوضع الإيديولوجى ، بالفعل، في الوقت الذى يعتق أدورنو وأتباعه أن التعرف على المشاكل وحلها، يتطلب تبصرا أو لنقل تأويلا للمسار الحاضر للتاريخ، فإن مؤلف المجتمع المفتوح يعتبر هذا وهما، بل ضارا، كل تأكيد على أن الإمساك باتجاه ثابت للأفعال الإنسانية.

ويبقى مصرًا على فكرة المجتمع المفتوح كفكرة مجردة، يفكر حسب قوله أعضاؤه
بعقولهم لا بدمائهم إشارة منه للنظم القائمة على القبيلة وتوابعها، الأمة والقومية ...
إلخ^(١).

* * * * *

(1).See : Roberta Corvi , An introduction to the thought of Karl Popper , Routledge & Kegan ,
1997 , P 147.